

فلسطين: لا صلح مع الإقصائية!

❖ حيدر عيد



طالبت الثورات العربية منذ بداياتها بالديمقراطية التعددية شعاراً رئيساً استشهد من أجله العديد من خيرة أبناء الأمة العربية. لم تتميز أي من هذه الثورات بشعارات إيديولوجية ضيقة لا تحترم اختلاف الرأي. ولم تقم على ثنائيات إقصائية تحتكر الحقيقة في إطار الحزب الواحد، مع وجود بعض الحالات الاستثنائية الهامشية. في هذه الثورات، اجتمع اليساري مع اليميني، والإسلامي مع العلماني، والمسلم مع المسيحي، والمرأة مع الرجل، في النضال من أجل بناء حياة ديمقراطية سليمة تقوم على احترام الآخر الوطني بغض النظر عن توجهه الإيديولوجي.

❖ كاتب وأستاذ جامعي فلسطيني.

تكمُن المشكلة الحقيقية في إنكار أن الإيديولوجيا الفئويّة جزءٌ فحسب من ضمن حقائق. وإذا تمّت رؤية التاريخ الإنساني من زاوية إيديولوجية ضيقة، فإنّ خطر إلغاء الآخر حتمي. وهذا ما يسمّيه الروائي الكبير بهاء طاهر «الكهف المعتم» الذي خرجت منه كل الشرور التي عرفتها الإنسانية:

«تبدأ فكرة وتنتهي شرًا. أنا على حق، ورأيي هو الأفضل. أنا الأفضل، إذن فالآخرون على ضلال. أنا الأفضل لأنّي شعبُ الله المختار، والآخرون أغيار. الأفضل لأنّي من أبناء الربّ المغفورة خطاياهم، والآخرون هراطقة. الأفضل لأنّي شيعي، والآخريّن سنّة؛ أو لأنّي سنّي، والآخريّن شيعة. الأفضل لأنّي أبيض، والآخريّن ملونون؛ أو لأنّي تقدمي، والآخريّن رجعيون. وهكذا إلى ما لا نهاية... كل ذلك القتل (الحروب) لأنّ القاتل دائمًا هو الأفضل، هو الأرقى، وعجلة المجازر تدور طول الوقت لتستأصل الآخريّن الأغيار، أعداء الربّ، أعداء العقيدة الصحيحة، أعداء الجنس الأبيض، أعداء التقدّم... الأعداء دائمًا وإلى ما لا نهاية... إحذر من هذه الطريق يا ولدي! إحذر لأنّه يبدأ من هنا، وينتهي هناك. يبدأ بأنت مخطئ، وينتهي بأنت تستحقّ القتل!»



كان الموقف الذي اتخذهُ العديّد من «الديمقراطيين» الفلسطينيين الراضين للنتائج «المفاجئة» لانتخابات ٢٠٠٦ هو أنّ التناقض الآن ينبغي أن يكون مع الإسلاميين؛ ومن ثمّ فإنّ الموقف «الصحيح» هو عزّ لهم، ولو أدّى ذلك إلى اتّخاذ مواقفٍ مشتركة مع الولايات المتحدة وإسرائيل وأنظمة الرجعية العربية.

الأنكى أنّ بعضهم كان قد برّر حصارَ غزّة عقابًا لحركة حماس، أو دافع باستماتة عن التنسيق الأمنيّ مع قوات الاحتلال، وعَدَّ كلّ مَنْ يدعو إلى احترام نتائج العملية الديمقراطية انتهازيًا أو ذا ميول إسلامية أو يمينية دنيئة!

على الطرف الآخر، طرف حركة حماس، تدهور الخطاب الإقصائيّ في المرحلة الأخيرة. فقد أُطلقت تصريحاتٌ ناريةٌ تفيد بأن «لا صلح مع العلمانية والعلمانيين»، وأنّ «الصلح هو أولًا مع الله»، وتتوسى أنّ فوز حركة حماس جاء من خلال عملية ديمقراطية تقوم على مبدأ «حكم الشعب للشعب»، وأنّ أجدية العملية الانتخابية تكمن في قبول نتائجها. لكنّ، تبعًا لهذه التصريحات، لو أُفرزت نتائج الانتخابات القادمة، وإنّ تحت حراب الاحتلال كسابقتها، فوز تيارات علمانية، فلن تقبلها حركة حماس.

غير أنّ نظرةً سريعةً إلى حركة التحرير الفلسطينية تظهر لنا أنّ معظم التنظيمات الفلسطينية ذات خلفيّة علمانية: فاليمين العلمانيّ مسيطرٌ على منظّمة التحرير والسلطة الوطنية، واليسار (الأكثر علمانية) ممثّل هو الآخر في المنظّمة. فإنّ لم تكن هناك إمكانية «للصلح» مع هذه التيارات ذات التاريخ

كذلك كانت انتخابات العام ٢٠٠٦ في كلّ من الضفّة الغربية وقطاع غزّة «فرصة» لفلسطينيي البانتوستانيين للتخلّص من ارتأوا أنّه قد فشل في إنجاز ما وعَدَّ به عبر توقيع اتفاقيات أوسلو - من استقلال وطني على ٢٢٪ من أرض فلسطين التاريخية، مع تأجيل حقّ عودة اللاجئين، وتأجيل المساواة التامة لسكان فلسطين ٤٨: وكانت انتخابات ١٩٩٦ قد أفرزت ثقافة معادية للديمقراطية، مبنية على عقيدة أمنية عالمالتيّة؛ ومن ثمّ جاء التصويت عام ٢٠٠٦ بشكلٍ يعاقب إفرزات ١٩٩٦، أملاً في بناء قاعدة جديدة تقوم على احترام التعددية بعيداً عن الإقصائية البغيضة.

الفارق بين ما يحصل في العالم العربيّ الآن من تحولاتٍ ديمقراطية عبر مخاضٍ كبير، وما حصل في الضفّة وغزّة، يكمن في وجود احتلالٍ استيطانيّ كلاسيكيّ في الحالة الثانية، يتناقض وجوديًا مع مبدأ الديمقراطية التعددية؛ وبالتالي كان استحصال إقامة انتخاباتٍ إلا بموافقة الاحتلال الذي لم يتوقّع النتائج التي جاءت بما لا يشتهيهِ (الملاحظ في هذا السياق أنّ إسرائيل، في الوقت الذي سمحت فيه بإقامة انتخاباتٍ مرتين في الضفّة وغزّة، تحمل موقفًا معاديًا للتحولات الديمقراطية في العالم العربيّ!).

تكمُن المشكلة الحقيقية في ما قد تضرزه الانتخابات من نجاحٍ اتجاهٍ ينقلب على هذه الآلية الديمقراطية بمنطقٍ إقصائيّ ينطلق من رؤية العالم برمته من خلال نظاراتٍ إيديولوجية تحصره في ثنائيةٍ أبيض/أسود، خير/شرّ، فتصبح وجهة نظر أحد الأطراف هي الحقيقة المطلقة التي تمثّل الخير/الأبيض في مواجهة الشرّ/الأسود الذي لا يمكن التصالح معه. وقد اشتُهر الرئيس الأمريكيّ السابق، جورج بوش، بمقولته: «إنّ لم تكن معنا، فأنت مع الإرهابيين» وهو منطلق أدّى إلى كوارث في العراق وأفغانستان، وإلى مقتل الملايين في سبيل ترسيخ الطريقة/الثقافة الأمريكية في الحياة. هذه هي الإيديولوجيا الإقصائية، وأبشعها تمثّل في: الفاشية، وبشكلٍ ما في الستالينية، والأپارتهيد، والكونولونية، والصهيونية، وفي بعض الأحزاب والحركات التي لا ترى إمكانيةً للتعايش مع أيّ «آخر» لا ينتمي إلى منظومتها الفكرية.

لأهمية هذا الموضوع، تحديدًا في سياق التغيّرات الثورية نحو حياة ديمقراطية واسعة في ظلّ الربيع العربيّ بشكلٍ عامّ، والسياق الفلسطينيّ بشكلٍ خاصّ، علينا محاولة فهم أعمق لمفهوم الإيديولوجيا وتعريفاته المتعدّدة.



تركز معظم التعريفات على الطريقة التي ترى فيها الطبقة المهيمنة العالم، فتسعى إلى إعادة إنتاج قيمها وإلى ترسيخها والدعاية لها، ومن ثمّ ضمان استمرارها وسيطرتها، لكي تصبح ثقافة المجتمع بأسره. وليس هنا سياق الحديث عن الطبقات المهمّشة وإيديولوجياتها المقاومة للثقافة السائدة.

النضاليّ الهائل، فمع مَنْ سيكون؟! وهل تعني هذه التصريحات أننا على خصامٍ تناقضيّ مع فكر إدوارد سعيد، وأدب غسان كنفاني، وشعر محمود درويش، ورسوم ناجي العلي، وكلّ شهداء الحركة الوطنيّة الفلسطينيّة؟! حين جاء الرئيس التركيّ

(الإسلاميّ) طيب رجب أردوغان لزيارة مصر، قوبل بترحيبٍ واستقبالاتٍ حاشدةٍ تصدّرها الإخوان المسلمون. وتطوّع بعضهم بطرح فكرة مباحة أردوغان خليفة للمسلمين لنجاحه في حكم تركيا، و«إعطائه صورة مشرفة للحكم الإسلاميّ»، ولمواقفه في كثير من القضايا الدوليّة، وعلى رأسها القضية الفلسطينيّة. ولكنّه في كلمته أمام جامعة الدول العربيّة دعا المصريين «إلى بناء مصر العلمانيّة». وفي برنامج حواريّ على إحدى المحطات، دعا المصريين إلى صياغة دستورٍ يقوم على مبادئ العلمانيّة:

«الآن، في هذه الفترة الانتقاليّة في مصر، وما بعدها، أنا مؤمنٌ بأنّ المصريين سيقومون بموضوع الديمقراطية بشكلٍ جيّد، وسوف يرون أنّ الدول العلمانيّة لا تعني اللادينيّة، وإنما تعني احترام كلّ الأديان وإعطاء كلّ فردٍ الحريّة في ممارسة دينه. وعلى المنوط بهم كتابة الدستور في مصر توضيح أنّ الدولة تقف على مسافة واحدة من كلّ الأديان، وتكفل لكلّ فردٍ ممارسة دينه... العلمانيّة لا تعني أن يكون الأشخاص علمانيّين؛ فأنا مثلاً لسكّ علمانيّاً، لكنني رئيسٌ وزراء دولة علمانيّة... ٩٩% من السكّان في تركيا مسلمون، وهناك مسيحيون ويهود وأقليّات، لكنّ الدولة في تعاملها معهم تقف عند النقطة نفسها، وهذا ما يقرّه الإسلام ويؤكدّه التاريخ الإسلاميّ...»

تكمّن المشكلة في ما قد تفرزه الانتخابات من نجاح اتجاه ينقلب على الآليّة الديمقراطيّة بمنطقٍ إقصائيّ ينطلق من رؤية العالم برمته من خلال نظارات إيديولوجيّة.



❖❖❖
إنّ منطق الإقصائيّة نقيضٌ لكلّ ما تناضل من أجله، من حريّة ومساواة وعودة. وهو منطقٌ عانتّه البشريّة قرونًا من الزمن. فمحاکم التفتيش القروسطيّة في أوروبا قامت في الأساس على هذا المبدأ؛ إمّا أن تقبل بالتفسير الكنسيّ الكاثوليكيّ،

أو أن تُعتبر مهملًا. كان ذلك في وقتٍ أبدعت خلاله الثقافة الإسلاميّة بانفتاحها على الحضارات والثقافات الأخرى والاستمارة منها بما يفيد التطور الإنسانيّ، إذ كل شيء خاضع للتدقيق والتحصيص. وما الجدل الفكريّ بين ابن رشد والغزالي إلا تعبير عن زمنٍ آخر، زمنٍ أنتج فيه المفكرون فكرًا حرًا أسّس لنهضة فكريّة إنسانيّة انطلقت في الغرب في القرون اللاحقة وكانت استكمالًا لثقافات إنسانيّة أخرى.

يقول المفكر الفلسطينيّ عزمي بشارة في إحدى تغريداته:

«الوطنيّ إذا تطرّف في حالة حربٍ قد يقصّف مدن الآخرين، فيُدان على ذلك. والقوميّ إذا تعصّب يبرّر قصف مدن الشعوب الأخرى، فيُدان على ذلك. والأصوليّ السلفيّ إذا بغى يشرعن العنف ضدّ من يعتبرهم كفارًا. والپائفيّ إذا تجرّب يبرّر العنف ضدّ أبناء الديانات الأخرى، وهو يدين على ذلك...»

هي الإقصائيّة في حالاتها المختلفة، من تعصّب إلى تطرّف إلى بغى إلى تجرّب. والخاسر دائمًا هو مجموع الشعب المتنوع المشارب، المتعدّد الثقافات. الخاسر هو الديمقراطيّة التعدديّة. الخاسر هو تراثنا المتشعب الجذور، وتاريخنا المليء بالعطاء من الفئات الدينيّة والفكريّة والسياسيّة المتعدّدة. الخاسر هو الحريّة.

غزة